مؤتمر دولي حول
"الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر: رؤية معرفية ومنهجية"
الرباط/المملكة المغربية: ٦-٧ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ (٢-٣ مايو ٢٠٠٩م)

محمد المنتار*

نظم المعهد العالمي للفكر الإسلامي هذا المؤتمر العلمي الدولي بالتعاون مع شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس في الرباط- المملكة المغربية. وقد جاء المؤتمر في إطار جهود المعهد العالمي للفكر الإسلامي من أجل إبراز معالم التجديد والإصلاح في حياة الأمة، ودعم مساعي الاجتهاد الأصيل في إطار من التفاعل الإيجابي للعقل المسلم مع مقررات الوحي الراسخة وقيمه الثابتة، ومجريات الواقع المتجددة ونوازله وتحدياته المتغيرة.

وقد استهدف المؤتمر الكشف عن الأبعاد المعرفية والمنهجية لتراث الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وتحديد أهم الإشكاليات الرئيسة التي وجهت تفكيره ودارت حولها تآليفه وكتاباته، مع إبراز سمات منهجه الإصلاحي، وإسهاماته الفكرية في سياق الفكر الإسلامي المعاصر.

ودارت أشغال المؤتمر في عدد من المحاور منها: النزعة الإصلاحية التجديدية في فكر العلامة محمد الطاهر بن عاشور، ومنهج تعامله مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وجهوده في مجال مقاصد الشريعة، وممارساته في إصلاح التعليم، وآراؤه في لغة القرآن الكريم وبيانه.

وقد اشتمل برنامج المؤتمر على خمس جلسات عمل فضلاً عن جلستي الافتتاح والختام، وتضمن برنامج المؤتمر اثنين وعشرين بحثاً علمياً لعلماء وباحثين من الأردن،

* باحث مغربي في سلك الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، ورئيس تحرير الموقع الالكتروني للرابطة المحمدية (رابطة علماء المغرب). البريد الإلكتروني: mohamedelmantar@gmail.com

وتونس، والجزائر، والسودان، وفرنسا، وماليزيا، ومصر، والمغرب، والمملكة العربية السعودية، والهند، والولايات المتحدة الأمريكية.

بدأت أعمال المؤتمر بالجلسة الافتتاحية التي عقدت بمدرج الشريف الإدريسي بكلية الآداب. برئاسة الدكتور خالد الصمدي، رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية، بالمغرب، والمستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بالمغرب. وتضمنت كلمات كل من عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدكتور محمد المختاري، الذي رحب فيها بالمشاركين، وأشاد بالعلاقات التي تربط كلية الآداب بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي. ثم تناول الحديث الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فقدم تعريفاً بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وبياناً لرسالته في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد، وإصلاح مناهج الفكر الإسلامي، لتمكين الأمة من استئناف دورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانية وترشيدها. كما تحدث في الجلسة الافتتاحية الدكتور العربي بوسلهام، رئيس شعبة الدراسات الإسلامية بجامعة محمد الخامس، نيابة عن اللجنة التحضيرية؛ إذ رحب بالضيوف المشاركين في الحلقة الدراسية، ونوَّه بجهود الجامعة ونشاطاتها العلمية المشتركة، وبخاصة في حقل البحوث العلمية والدراسات العليا.

وتضمنت الجلسة الافتتاحية محاضرة ضيف الشرف الأستاذ الدكتور محمد بلبشير الحسني، مؤسس شعب الدراسات الإسلامية بالمغرب، وكانت المحاضرة بعنوان: "ماهدون من المغرب العربي في النصف الأول من القرن العشرين"، قدم فيها المحاضر نظرة عن جهود ثلاثة من رواد الإصلاح والتجديد في كل من تونس والجزائر والمغرب، في القرن الماضي، وهم: محمد الطاهر ابن عاشور، وعبد الحميد ابن باديس، وعلال الفاسي. فالشيخ ابن عاشور امتد عمله في البحث والتنظير والتدريس على مدى ثلاثة أرباع القرن الماضي، في حين امتد جهاد الشيخ ابن باديس بالقلم والتبليغ طوال النصف الأول من القرن الماضي. أما الأستاذ علال الفاسي فقد تركز عمله في التنظير الفكري والكفاح الميداني قبل استقلال المغرب وبعده من الربع الثالث من القرن الماضي. واستعرض الدكتور بلبشير مجالات الالتقاء والاختلاف بين هؤلاء المصلحين، الذين اتفقوا على إحياء الاجتهاد والتجديد وعلى تحرير مجتمعهم من مختلف مثبطات

النهضة والتحرر، ومن الاستعمار والتخلف والجهل، واتفقوا على أن عصب الإصلاح هو التربية والتعليم، فعمد الشيخ ابن عاشور والأستاذ علال الفاسي إلى إصلاح القرويين والزيتونة، وأسس ابن باديس المدارس والمعاهد بالجزائر.

وعُقدت الجلسة الأولى، في قاعة الشيخ محمد المنوني، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، برئاسة الدكتور فتحي ملكاوي، المدير الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وتضمنت أربع أوراق. قدم الورقة الأولى الدكتور عمار الطالبي، أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الجزائر، وكانت بعنوان: "التجديد عند الشيخ الطاهر ابن عاشور"؛ بين فيها مناحي التجديد عند الشيخ، واجتهاده في جانب مهم من الحياة العقلية في الحضارة الإسلامية؛ وهو المنهج الفقهي. وقد ألف في هذا المجال كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية" الذي يظهر فيه تجديده وإبداعه واجتهاده، وأصالته الفكرية بوضوح تام.

وجاءت الورقة الثانية بعنوان: "مدى إسهام البحث العلمي بتونس في تجلية فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور" للدكتور العروسي الميزوري، مدير المعهد العالي لأصول الدين بتونس، الذي رصد من خلالها إسهامات البحث العلمي بتونس المتعلقة بابن عاشور، ولاحظ أنها شملت أبحاثاً في علوم القرآن، وعلوم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، وعلم الاجتماع، وعلوم التربية، واللغة العربية، والتحقيق، والسير، وزادت عن خمسين بحثاً. فضلاً عن رصد شامل لمقالات الشيخ ابن عاشور الصحفية.

وقدم الدكتور صادق كرشيد، أستاذ علوم القرآن والحديث والسيرة بجامعة الزيتونة، الورقة الثالثة وكانت بعنوان: "المترع العقلي عند محمد الطاهر ابن عاشور". أَبرَز فيها معالم المترع العقلي عند محمد الطاهر ابن عاشور ومرتكزاته، من خلال ما سعى إليه وحققه من إصلاحات في مجال التعليم، وتجديد منهجي في درس التفسير، ونظر في مسائل الفتوى بالقرائن والأمارات والمآلات، ومراعاة لأحوال المكلفين، حفاظاً على مصالحهم.

وجاءت الورقة الرابعة تحت عنوان: "المكافحة المنهجية عند ابن عاشور لفساد المجتمع ومجالات الإصلاح والتجديد"، وقدمها الدكتور علي جمعة الرواحنة، من قسم الفقه وأصوله بجامعة آل البيت في الأردن. وهدفت الورقة إلى معاينة هذه المنهجية في

إصلاح واقع الأمة الإسلامية في جميع مستوياته، مع إبراز التنظير المنهجي، والتفاعل مع الحركة العلمية وقادة الإصلاح في عصره.

أما الجلسة الثانية، فترأسها الدكتور العروسي الميزوري، مدير المعهد العالي لأصول الدين بتونس. ونوقشت فيها ثلاث ورقات، قدم الورقة الأولى الدكتور عبد المجيد النجار، الأمين العام المساعد للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، في ورقة بعنوان: "المنحى التطبيقي في مقاصد ابن عاشور". بدأ فيها بالتذكير بأهمية البعد التطبيقي بمقاصد الشريعة وأهمية تفعيل المقاصد، بما يعني تحريك العقل الشرعي تحريكاً مقاصدياً. ثم نوّه بالأهمية التطبيقية للمقاصد عند ابن عاشور متناولا إسهامين هامين في المنهج التطبيقي: أولهما سبل الكشف عن مقاصد الشريعة، والذي يمثل أول مراحل المنهج التطبيقي، وثانيهما تفصيل المقاصد الخاصة في أبواب المعاملات. ورجح الباحث أن يكون الاستعمال التطبيقي للمقاصد هو الدافع الأساس لتأليف ابن عاشور لكتابه المقاصد.

وجاءت الورقة الثانية تحت عنوان: "الامتداد الزمني للمصالح في الفكر المقاصدي للإمام ابن عاشور: من البعد الاعتقادي إلى الوجهة التدقيقية" للدكتور إسماعيل الحسني، أستاذ مقاصد الشريعة والفقه المعاصر في جامعة مراكش بالمغرب، وفيها كشف عن الامتداد الزمني للمصالح الشرعية، من خلال وجهتين: وجهة تنطلق من الأساس الاعتقادي للمصلحة في الإسلام لتعالجها في بعدها الدنيوي والأخروي. ووجهة تدقيقية يحصر صاحبها الكلام في الإطار الدنيوي لحياة الإنسان الفرد ولحياة المجتمع والأمة.

وجاءت الورقة الثالثة تحت عنوان: "استمداد المقاصد وشروط اعتبارها عند الطاهر ابن عاشور: رؤية منهجية معرفية" للأستاذ محمد المنتار، رئيس تحرير موقع الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، وفيها حاول أن يميز إسهامات ابن عاشور في مقاصد الشريعة عموماً، ومظانّ استمدادها وشروط اعتبارها خصوصاً؛ إذ حصرها في شروط، هي: الثبوت، والظهور، والانضباط، والاطراد والإطلاق، فضلاً عن شرط العموم والشمول، وعدم النسخ. مع الوقوف عند إشكالية القطعية والظنية التي تجلت في شكل مسألة خلافية بينه وبين الشاطبي، كما وقف أيضا عند مسألة المسالك التي بها تعرف مقاصد الشريعة.

أما الجلسة الثالثة، فترأسها الدكتور أحمد الريسوني، أستاذ مقاصد الشريعة وأصول الفقه في شعبة الدراسات الإسلامية بجامعة محمد الخامس سابقاً، والخبير في مشروع معلمة القواعد الأصولية، ونوقشت فيها أربع ورقات، قدم الأولى الدكتور جمال الدين دراويل، رئيس تحرير مجلة "الحياة الثقافة" التي تصدرها وزارة الثقافة في تونس، في ورقة بعنوان: "الاتجاه المقاصدي لدى الأستاذ الإمام ابن عاشور: دلالاته واستحقاقاته"، فبين أنَّ التوجه المقاصدي الذي انتهجه ابن عاشور ينطوي على وعي نقدي للأسس التي بُني عليها العقل الفقهي القديم، وعلى هاجس تطوير البناء الفكري للمنظومة التشريعية الإسلامية على النحو الذي يجعل من التشريع عامل التنشيط للحركة الحضارية، وعنصر تغذية لتقدم المجتمع الإنساني، ويجنب المسلم عواقب التعارض والصدام بين النص والواقع.

وجاءت الورقة الثانية بعنوان: "الإمام المجدد الناقد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وإشكالية قطعية أصول الفقه: قراءة في كتابه مقاصد الشريعة" للدكتور مبارك أخرضيض، دكتوراه دولة في الشريعة الإسلامية من جامعة القرويين، ومسؤول إداري بولاية أكادير المغربية. وتضمنت المقومات الأساسية التي بنى عليها ابن عاشور منهجه النقدي لإثبات ظنية أصول الفقه، مع بيان بعض المنطلقات التي انطلق منها الأصوليون القائلون بقطعية أصول الفقه، والإشارة إلى بعض الضوابط المنهجية التي وظفها ابن عاشور لتوسيع آليات الاجتهاد المقاصدي بغية تأسيس علم أصول الفقه على القطع أو الظن القريب منه، وذلك بديلاً لعلم أصول الفقه.

وقدم الدكتور نعمان جغيم، الأستاذ المشارك ورئيس قسم الدراسات العامة بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، الورقة الثالثة، وجاءت بعنوان: "فقه السنة النبوية عند الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور". وكشف فيها عن بعض جوانب فقه السنة النبوية عند هذا العالم المحقق، من خلال كتبه "كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ"، و"النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح"، و"مقاصد الشريعة الإسلامية". ورصدت الورقة عوامل القوة عند ابن عاشور في فقه السنة النبوية رواية ودراية، مع تقديم تطبيقات في نقد الشيخ لبعض متون الأحاديث.

وجاءت الورقة الرابعة بعنوان: "موقع الشيخ ابن عاشور في الفكر الإصلاحي الحديث" للدكتور سليمان الشواشي، الأستاذ المحاضر في أصول الدين بجامعة الزيتونة بتونس؛ إذ تساءل فيها عن موقع الشيخ ابن عاشور في الفكر الإصلاحي الحديث؛ هل هو امتداد للحركة الإصلاحية التونسية التي تزعمها قبادو وخير الدين؟ أو إنَّه تابع في آرائه الإصلاحية للأفغاني وعبده؟ وبعد أن قام الباحث بإبراز سمات الحركتين الإصلاحيتين المشرقية والمغربية، وعرض نماذج من جهود ابن عاشور الإصلاحية، استخلص أن جهود ابن عاشور مزجت بين الحركتين، وشكلت مدرسة إصلاحية واحدة، كان ابن عاشور قطباً من أقطابها.

أما الجلسة الرابعة، فترأسها الدكتور عبد المجيد النجار، وتضمنت ثلاث ورقات، أولاها للدكتور صحراوي مقلاتي، الأستاذ المحاضر بكلية العلوم الاجتماعية والإسلامية بجامعة باتنة في الجزائر، وجاءت بعنوان: "تأصيل القيم العالمية الكبرى عند الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور". ورأت الورقة أن الروافد المتعددة التي شكلت فكر ابن عاشور جعلت منه رائداً في المدرسة الإسلامية المعاصرة، وشخصية موحدة للأمة، من خلال دقته العلمية، وتأصيله لكثير من المفاهيم والقيم العالمية الكبرى كالحرية والعدالة والمساواة والتسامح والحوار، وغيرها.

وجاءت الورقة الثانية بعنوان: "نقد مقصد الحرية في فكر محمد الطاهر ابن عاشور" للدكتور محمد همام، دكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية، ومسؤول إداري بولاية أكادير المغربية. وهدفت الورقة إلى الوقوف على مجهود الشيخ ابن عاشور غير المسبوق في ترسيخ الحرية بوصفها مقصداً من مقاصد الشريعة. وأظهرت الورقة أن ابن عاشور يمثل أحد الرموز الفكرية التي انفردت بالإلحاح الفكري على دور الحرية في تنمية الإنسان وتحقيق رسالته الاستخلافية، بل عدّها مقصداً من مقاصد الشريعة.

وقدم الدكتور إسرار أحمد خان، وهو عالم هندي يعمل أستاذاً في قسم القرآن والسنة، في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، الورقة الثالثة تحت عنوان: "نظم القرآن ومنهج ابن عاشور: دراسة تقويمية"، وحاول فيها أن يكشف عن معالم منهج ابن عاشور الخاص بنظم القرآن. وعرض نماذج تطبيقية، واستخلص أهم القضايا التفسيرية المتعلقة بنظم الآيات والسورة في تفسير التحرير والتنوير.

أما الجلسة الخامسة فترأسها الدكتور عمار الطالبي، أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الجزائر، ونوقشت فيها أربع أوراق. كانت الورقة الأولى للدكتور عبد الرحمن العضراوي، أستاذ مقاصد الشريعة وأصول الفقه والفكر الإسلامي بجامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المغرب، وهي بعنوان: "أسئلة الإصلاح وأجوبة المقاصد في سلفية الطاهر ابن عاشور"؛ إذ عرض الباحث سلفية ابن عاشور من خلال مدخل المقاصد الشرعية ووظيفتها المعرفية والمنهجية في الإصلاح.

وجاءت الورقة الثانية تحت عنوان: "ابن عاشور وإعادة الاعتبار للقول الكلي في الفكر الإسلامي" وقدمها الدكتور بدران بن لحسن، الأستاذ المحاضر بقسم الفلسفة بجامعة باتنة في الجزائر. وأبرزت الورقة جهود ابن عاشور الرامية إلى استعادة الفكر الإسلامي لأهم خصائصه. ووظفت الورقة استراتيجية تحليل بعض المقولات الكلية والقواعد المنهجية التي يقوم عليها فكر ابن عاشور وتطبيقاتها في إنتاجه الفكري وممارساته الإصلاحية، المتمثلة في مركزية القرآن في إنتاج المعرفة، وأخلاقية الرؤية الإسلامية من خلال مقولة المقاصد، ومركزية الإنسان في النظر الإسلامي من خلال مقصد الحرية، وأهمية المجتمع من خلال إعادة الاعتبار للنظام الاجتماعي، وأولوية البناء على التكديس من خلال إعادة إصلاح نظام التعليم.

وقدم الدكتور خالد الطرودي، الباحث في المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، ورقة بعنوان: "المقاصد التربوية من إصلاح التعليم في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور". واستخلصت الورقة المقاصد التربوية في مشروع ابن عاشور الإصلاحي، كما ظهرت في كتابه: "أليس الصبح بقريب". ورأى الباحث أن ابن عاشور كان يملك رؤية شاملة حول ضرورة صياغة البرامج التعليمية بقدرات تجديدية عالية، تتصف أحياناً بالثورة على المألوف. وهو في مشروعه الإصلاحي التربوي هذا يتسق مع رؤيته للإصلاح في الجوانب الأخرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وختمت الجلسة الخامسة بورقة قدمها الدكتور محمد عبد الفتاح الخطيب، مدرس اللغويات والفكر الإسلامي بجامعتي الأزهر الشريف والإمارات. وجاءت تحت عنوان: "فهم النص وإشكالية التأويل عند الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (قراءة في مقدمات تفسيره)". وهدفت الورقة إلى الوقوف على الأحكام الضابطة لحركة تحليل الخطاب، وفهم النص وإشكالية تأويله، منهجاً وتنظيراً، انطلاقاً من الدراسات اللسانية للأصول

والضوابط التي تحكم تحليل الخطاب القرآني والنبوي، في تراثنا الإسلامي العربي، وهي التي أوردها ابن عاشور، من خلال المقدمات العشر، التي صدّر بها "التحرير والتنوير". وعرض الباحث منهجية ابن عاشور في الانتفاع بكلام الله، قراءةً وتدبراً وتفسيراً، من خلال: ضبط العلاقة بين القارئ وفقه النص، وضبط العلاقة بين منهج الاستنباط ومسألة القصد والمراد، وضبط العلاقة بين المنطوق والمفهوم، وضبط العلاقة بين حركة اللفظ ومنطق المعنى.

وترأس الجلسة الختامية، الدكتور فتحي ملكاوي، المدير الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، فخصّ بالشكر أعضاء اللجنتين العلمية والإدارية للمؤتمر، وللعلماء والباحثين الذين أعدوا البحوث وعرضوها أو عقّبوا عليها، وأكدَّ أنَّ بحوث المؤتمر سوف تنشر في كتاب بعد الاستفادة من مداولات المؤتمر واستكمال متطلبات النشر. ثم فتح المجال للمشاركين لإبداء آرائهم حول أعمال المؤتمر وأوراقه وبرنامجه. وقد نوّه المشاركون بجهود المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الوصل بين المؤسسات العلمية والعلماء والباحثين في شرق العالم الإسلامي وغربه. ثم قرأ الدكتور خالد الصمدي البيان الختامي للمؤتمر وتوصياته، وأبدى المشاركون بعض الملحوظات والاستدراكات. ثم جاء دور الكلمة الختامية لكل من المؤسستين المنظمتين للمؤتمر، فأشاد الدكتور العربي بوسلهام، رئيس شعبة الدراسات الإسلامية، بالجو العلمي الذي ساد أشغال المؤتمر، شاكراً كل من أسهم في إنجاح أعماله. وأعرب الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عن شكره لشعبة الدراسات الإسلامية، ولجامعة محمد الخامس، وللباحثين المشاركين في هذا المؤتمر. وختمت الجلسة بالدعاء.

وقد جاء في البيان الختامي للمؤتمر وتوصياته ضرورة استلهام تراث المفكرين والمصلحين في أرجاء العالم الإسلامي لصياغة مشاريع تجديدية، وبخاصة في مجال إصلاح التعليم وتجديد دراسة العلوم الإسلامية، ودعوة المعهد العالمي للفكر الإسلامي إلى الاهتمام بالحركة العلمية والثقافية بالغرب الإسلامي، ومدِّ جسور التواصل بين الجامعات ومراكز البحث في هذه المنطقة، ومناطق العالم الإسلامي الأخرى، وتوجيه اهتمام الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى أبحاث ودراسات تهتم بأعلام الإصلاح الفكري والاجتماعي المحدثين والمعاصرين.